تعليقات

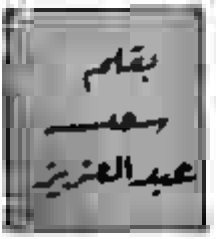

قصص في ضوء النقد

حقيقة لا يختلف فيها اثنان وهي ان الأدب ليس له من سبيل فرقه وتحديده الا بادراة جلسة لاخذ بتفسيره وتحليله وتقييمه وهذه الاداة هي التي نحددها ممثلة في النقد الموضوعي ... وقد نجد بعض الأعمال القصصية لها من المقومات ما يجعلها تفرض نفسها على الناس جميعا متجاوزة في ذلك كل القواعد وكل الأصول وقد يؤدي ذلك الى الاعتقاد بان مهمة النقد هنا لا تعدو ان تكون مهمة ثانوية بمعنى ان الناقد يسير دائما في اعقاب العمل الفني فكان العلاقة بينهما علاقة تابع ومتبوع او علاقة سيد ومسود لكن هذا يجانب الصواب فالحق أن لكل منهما وظيفة يؤديها فاذا كانت وظيفة العمل الفني تتمثل في تعميق نظرتنا الى الحياة عن طريق استبطان حقائقها وتكشيف هذه الحقائق أمام ادراكنا الوجداني والعقلي فان هذا في تقديرنا لا يمثل الا نصف الحقيقة .. أما النصف الآخر فهو يقف الى جانب النقد ذلك لانه يقوم بعملية الكشف عن أسرار العمل الفني وايضاح المغزى الذي يرمي اليه ... فكم من الأعمال الأدبية العظيمة ظلت مجهلة في طي النسيان الى ان جاءها النقاد فكشفوا عن قيمتها ولفتوا انظار الناس جميعا اليها ... فاذا كانت مهمة الفنان تشكيل العناصر الفنية تشكيلا دراميا معبرا فان مهمة الناقد تنحصر في تفكيك هذه العناصر وتسليط الضوء عليها لمعرفة سر عراها وبمعنى آخر يمكن القول بان عمل الفنان انما هو التركيب وان عمل الناقد انما هو التحليل وانه لكي ندرك الحقيقة في تكاملها وفي جميع ابعادها لا غنى لنا عن هذين العملين في مجال الفن .

ولعلنا نجد في هذه المقدمة التي عرضناها التبرير الكافي للمهمة التي نقوم بها الآن وهي ان نتناول بعض القصص التي جاءت في عددنا مادة من مجلة القصة بالبحث والنقد والتقييم .

واولى هذه القصص التي نعرض لها الآن هي قصة اهل زمان الكاتبة جاذبية صدقي وهي تحكي عن رجل قد اشرف على الثمانين عاما اخر الى القاهرة بلا متاع سعيا وراء الرزق فقد ضاقت به بلدته فاراد ان يجرب حظه في مكان آخر .. انه الآن لا يملك من حطام الدنيا شيئا فكل شيء استهلكه من اجل تربية ابنائه الذين لا يعرون له اهتماما . وكان الرجل قد اعطاه درسا في الحرص والبخل والانانية فهو يشعر بالجوع يهش احشاءه فيشتري « سميدة » وقطعة جبن .. واشتم كلب اجرب رائحة الطعام فراح يستعطفه بنظراته ويهز له ذنبه ان يلقي اليه بكسرة من (السميدة) لكنه كان متلذذ من تعذيبه الكلب وحرمانه من هذا الطعام وكانه بهذا الفعل يثأر لنفسه .. وفي اثناء جلوسه في المحطة استمع الى حكاية كان يرويها احد الكهول الى زميله فاثارت في نفسه شعور الارتياح ذلك لانهما تحكي عن النفوس الكبيرة وكيف انها تظل دائما وتبقى دائما .

ذلك هو مضمون القصة اما اذا نظرنا الى طريقة صياغتها فنجد انها تتالف من عناصر ديناميكية

موحية تسعى الى التشكيل والبناء ... لكن هـذا البناء يعتمد في تكوينه على وحدات منفصلة بعيدة كل البعد عن التفاصيل والاندماج في وحـدة كلية متماسكة ... وهذه الوحدات بعضها ممكنة في سلسلة الحكايات المتشعبة التي تطبع القصة بالتخلخل وعـدم الانسجام في ايقاع واحد .. ولهذا فهي تسير في خطوط متوازية وقد تتقارب هذه الخطوط فيما بينها وتلتقي في المعنى الرئيسي للقصة لكنها مع ذلك لا تلتقي في التشكيل التكنيكي للقصة . فقد رأينا الرجل يحكي حكايته وهي خلال حكايته نستمع الى حكاية اخرى تروى على لسان احد الكهلين الذي راح يروي عن الحاج رفاعي والشيخ سويلم حتى اذا جاءت نهاية القصة عرجنا بالمعنى الاخلاقي المثل في الاخذ بالعفو وايثار الخير للناس دائما .

ومن هنا يتضح لنا ان المعنى الرئيسي للقصة قد سلكه اليها الكاتب في صياغة متكاملة مشتتة تعتمد على التفريعات والتفاصيل اكثر مما تعتمد على التركيز والاتجاه رأسا « الى اصابة الهدف وكان لهـذا اثر بالغ في تأثير الايقاع الدرامي للقصة فقد كان تأثيره خافتا قارئا متراخيا » .

ويمكن ايضاح القصة من الوجهة المنطقية على هـذا النحو

(ا) رجل قد أشرف على السـجن يحكي عن نفسه .

(ب) الكهل الذي يروي على لسانه حكاية ارسله .

(جـ) الكلب الاجرب وهو يسعى مستعطفا بعض الطعام .

على ضوء ذلك يكون الحد الأوسط هنا هو الكهل الذي يقف بين بطل القصة من جهة وبين الكلب الاجرب من جهة اخرى .. وهو يعد انفسنا القوة الموازنة التي ترتبط بين ثنائية الشعور وتناقضه عند البطل .

الشعور بالسخط الذي يؤدي الى عدم اعطاء الكلب الطعام من ناحية والشعور بالرضا الذي يكون من اثره القاء كل ما في يد الرجل من طعام الى الكلب من ناحية اخرى .

ذلك هو التحليل المنطقي للقصة وهو الذي تمثل فيه الخطوط الرئيسـة التي استطاعت الكاتبة ان تنسج منها نسيج القصة .. واذا كان هذا النسيج لا يخلو من بعض التقوب فيهلا لا يمنع من تقدير هـذا العمل الادبي فقـد استطاعت هذه السيدة ان تتنوع عبه الاحترام وبعد قضاء بضعة ايام تعاوده يتطلق الى الطريق ويصادفه أحـد الاصـدقاء معزيا له في زوجته ويتذكر أخراته من حديد فلا يعد مناصبا من الهجرة الى قريته ليقضي فيها بقية حياته .. الى هنا تنتهي القصة وهو بهذه النهاية ترمي الى المعنى الانساني المثل في ان على المرء ان يبحث له عن ملاذ يلوذ به في حياته .. وقد استطاع الكاتب بحق ان يعطينا فيما يخص هـذا المعنى ، شحنة انفعالية هائلة ... لكن الذي اريد ان اوضحه الآن انما هو الطريقة التي صاغ بها هـذا المعنى .. كيف استطاع ان ينسج الخيوط حتى صارت نسيجا « وشكلا ؟ .. ما احسب الا ان الاستاذ سعد حامد يمتلك اسلوبا ادبيا بليغا .. ما في ذلك من شك .. لكن ينبغي ان نقف قليلا عند مفهوم كلمة بلاغة .. فعندي ان هذه الكلمة تختلف مقاييسها باختلاف نوعية الاشكال الادبية .. فما يجود في هـذا الشكل لا يجود في غيره .. فمثلا مقياس البلاغة في النثر الانساني يختلف تماما عن مقياس البلاغة في التعبير الدرامي .. ذلك هو محور الخلاف بيني وبين كاتب هـذه القصة .. فانا هنا الاحظ صياغة مرتبكة تخلو تماما من اي رابط يوحد بين اجزائها .. فهي تعتمد على جمل منجزة مرصوصة بعضها بعض بنظام بحيث يعد كل جملة هنا مكتفية بذاتها مستقلة بمفردها

فهي لا تشارك في التكوين الكلي للقصة ودليل ذلك اننا يمكن ان نقتطع جزءا كبيرا من هذا السياق دون ان يخل المعنى ودون ان يؤثر ذلك في النظام العام للقصة .. ذلك لان القصة سرد غنيا بطريقة تقريرية خالية من اى ترابط سببي او عضوي او منطقي .. ويرجع سبب ذلك الى ان الكاتب اعتمد على الطريقة الانشائية التعاقبية في الكتابة اكثر من اعتماده على الشعور الحركي الذي يخلق من التحول سعيا موصول الاجزاء .

فالجملة هنا تحمل طابع الشوق الذاتي للجملة التالية .. فهي بمثابة اللبنة التي تساعد في ارتفاع البناء .. وحبذا ان اسوق بعض الفقرات من هذه القصة : -

تقول السيدة للرجل : « ... لكن عليك ان تعيش حياتك وليست الحياة هي جنة الفردوس التي وعد بها المتقون ولكن الانسان يستطيع ان يجعل من الجحيم فردوسا » ويستطيع ايضا ان يجعل من الفردوس جحيما .. في كل مكان نستطيع ان نجد السعادة .. في الاكواخ والعشش نوجد اناس اكثر سعادة من بعض سكان الشقق الفاخرة والقصور الفخمة .. » .

ذلك كله يجوز ان نكون ادبا بليغا في مجال الوعظ والخطابة لكنه لا يمكن ان نكون مستساغا في ادب القصة .. ذلك الادب الذي يستجيب في اسلوبه بالتلميح دون التصريح والايحاء بالصورة والرمز دون لمس واقع الحياة لمسا مباشرا ... لكن الكاتب بالرغم من ذلك استطاع ان يسوق لنا بعض الجزئيات المثيرة .. منها موقف الرجل وهو يدور في شقته بحثا عن زوجته فيتطلع الى ثيابها المعلقة على الشماعة ويشم رائحة عطرها ويهتف باسمها في صوت خافت .. ومنها وصف الطرقات المائلة بالضوء .. واخيرا لا ننسى الا ان اقدر موهبة الكاتب في هذا الصدد .

والقصة الثالثة التي اسقيتها قصة بعنوان صغيرة وهي قصة قناص بحارات السحائر وتبذل جهدها في ان تملأ الكون الذي تجمع داخله هذه النهايات .. فهذا شرط عودتها الى بيت ابيها ذلك الرجل الشرس الذي يعاملها بكل قطائة .

واهم ما اسسه في هذا الكاتب انما هو دقة احساسه وقدرته على التقاط الجزئيات الموحية من مجرى الحياة الواقعية لكي يخلق منها نسقا ادبيا متكاملا .. فهو يستطيع ان يلتقط من الحياة صورة معينة وان يسبغ هذه الصورة مستوحيا منها كل ما ينبع من المعاني والاحاسيس وكل ما يفيد في تصوره الفني .. فهذه الفتاة تلك مريضة مرتقبة مصير السيجارة التي في يد صغار القدى وبعدها هي تقف مشدودة مرعوبة لعقب السيجارة يدخل في الموقف عنصر جديد .. انه صراخ مدهشة ذلك الطفل الذي لسعت السيجارة انامله في لحظة من والده .. فتحول انتباهها فجاة الى وجهة اخرى .. لقد نسيت كل شيء وهي الآن تتعاطف مع الطفل فقد حز في نفسها ان تراه يبكي وتمنت لو تمسح دموعه المنهمرة وتمنت لو تمر بيدها فوق نعومة خده .. ستغفل عنها من رماد النهايات قبل ان تفعل ذلك .. لكنها حين رات الكل يسارع في تهدئته انصبت الكاتبة في عينيها فقد راحت تقارن بين نفسها وبينه وراحت تتساءل :

لماذا ليس لها مثل حياته ؟ .. لماذا تكون موضع اغراض الجميع ولماذا يكون هذا الطفل موضع حب الجميع ؟ .

على هذا النحو استطاع الاستاذ عبد العال الحمامصي ان ينقل الفتاة في خلال الموقف الواحد ثلاث نقلات شعورية .. فهي اولا تشعر بالتحفز وتعد نفسها للانقضاض على علب السيجارة وهي ثانيا تتجه الى الطفل وتتعاطف معه وقد نسيت ما كانت تنتظره وهي ثالثا يداخلها شعور الكآبة لانها لا تنعم بكل ما ينعم به هذا الطفل .

وعلى هذا لا تخرج قصة « صغيرة » عن كونها تصوير لموقف من جميع ابعاده .. والموقف هنا لا يضم اكثر من فتاة واستجابة فكلما اختلف ايقاع الفتاة استدعى هذا اختلاف في ايقاع الاستجابة وهكذا تسير القصة في اسلوب من التنويع والتلوين حتى النهاية . وعلى هذا الاساس يمكن القول بان الاستاذ الحمامصي يحدثنا من خلال هذا العمل الادبي بلغة القصة الصحيحة .